المحاضرة الثالثة

بيبليوغرافيا الدّراسات الصوتيّة عند العرب

السنة الأولى ماستر تخصص لسانية تطبيقية

لم تحظ الأصوات العربية بمعالجة منفردة من طرف اللغويّن العرب القدماء، بل كان تناولهم لها ضمن قضايا أخرى، فأخذت اتجاهات متعدّدة عند النحاة والبلاغيين، وأصحاب المعاجم، والمهتمّين بالإعجاز القرآني والقراءات القرآنية، لهذا لم يكن البحث الصوتي مستقلا بذاته منذ نشأته الأولى، بل كان في بدايته جزءا من أجزاء النحو، ثم استعاره أهل الأداء و المقرؤون, وزادوا فيه تفصيلات كثيرة مأخوذة من القرآن الكريم. غير أن هذا لاينفي أنّ الدّرس الصوتي عند العرب من أقرب الدّراسات اللغوية إلى المنهج العلمي، ذلك أنّ أساس هذا الدرس مبني على الدّراسات القرآنية، وقد درس العرب الأصوات اللغوية، دراسة وصفية واقعية قائمة على الملاحظة الذاتية، وبعيدة عن الافتراض والتأويل.

وقد بدأ البحث الصوتي متقدّما منذ مطلع القرن الثاني للهجرة، ويعدّ **كتاب العين** للخليل ابن أحمد الفراهيدي، أحد أهم الإنجازات الصوتيّة وإن كان ملازما لصناعة المعاجم، ذلك أنّ أصحاب المعاجم من أقدم من تحدّث عن الصوتيّات. وملاحظات الخليل في الأصوات تمثّل المرحلة الأولى لتكوين هذا العلم، من حيث إنها تحتوي على آراء دقيقة، تدلّ على قوة الملاحظة والاستقصاء، فكانت بذلك المنطلق الذي استوحى منه علماء القرون اللاحقة مصطلحاتهم وشروحاتهم.

كتاب لسيبويه: تحدّث سيبويه في كتابه عن أصوات العربية حاصرا إياها في تسعة وعشرين حرفا؛ يقول في باب الإدغام: "هذا باب حروف العربية ومخارجها ومهموسها، ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها، واختلافها فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا".

وقد خالف بذلك سيبويه أستاذه الخليل في ترتيب مخارج الحروف كما اتّسمت دراسته للأصوات بالدّقة. فلم يكتف بالوصف المقتضب، إنما حاول دائما التفصيل.

وقد سار على إثر الخليل وسيبويه العديد من اللغويّين من أشهرهم:

- أبو العبّاس محمد بن يزيد المبرّد في كتابه المقتضب.
- محمّد بن حسين بن دريد البصري في كتابه الجمهرة.
- أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه الجمل في النحو.
- محمد بن أحمد الأزهري في كتابه تهذيب اللّغة.
- أبو الحسن علي ابن إسماعيل بن سيّدة في كتابه المحكم والمحيط الأعظم.

ويعدّ أبو الفتح عثمان ابن جنّي أوّل من خصّ المباحث الصوتيّة بكتاب مستقل، ونظر إليها بكونها علما قائما بذاته، في كتابه الموسوم بـ سرّ صناعة الإعراب، والذي تناول الموضوعات الآتية:

- عدد حروف الهجاء وترتيبها ووصف مخارجها.

- بيان الصّفات العامّة للأصوات وتقسيمها لاعتبارات مختلفة.

- بيان ما يعرض للصّوت في بنية الكلمة من تغيير يؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف.

ومن أهم الكتب النحوية التي عالجت المسائل الصوتية نجد كتاب المقتضب للمبرد، حيث تركز المبحث الصوتي عنده في ثلاثة أبواب خصصها لظاهرة الإدغام، فضلا عن المواضيع المتفرقة التي نعثر عليها في مختلف الأبواب الأخرى، أما فيما يخص منهجه في الدراسة الصوتية فكان بذكر أعداد الحروف، ثم ذكر مخارجها وصفاتها، ومصطلحاتها ثم ينتقل إلى الحديث عن الظاهرة الصوتية التي وسمها باسم الإدغام كالآتي:

- الباب الأول: إدغام المثلين.

- الباب الثاني: الإدغام في المقاربة ، وما يجوز وما يمتنع.

- الباب الثالث: ما تقلب فيه السين صادا وتركها على لفظها أجود.

ومن الكتب الأخرى التي عالجت الأصوات نجد :

*- الأصول في النحو لابن سراج.

*- الزجاجي في كتابه الجمل.

*- الكسائي في كتابه معاني القرآن.

ومن العلوم الأخرى التي عنيت بالدّراسة الصوتية نجد أيضا علم البلاغة وهنا حاول الجاحظ كعلَم من أعلام البلاغة في كتاب البيان والتبيين ذكر بعض الاحترازات الادائية لتصحيح عيوب النطق، سواء كانت عيوبا فطرية أم خلقية.

وبالنسبة للدّراسات القرآنية نستطيع أن نمثل بكتاب الرسالة للشافعي الذي عني بمباحث أصول الفقه، غير أنه خصص جانبا منه لدراسة الجوانب التي تهتم بأحكام التجويد، والأصوات العربية وأصنافها وأحكامها، ومن أهم الكتب التي عنيت بالقراءات القرآنية نجد أيضا:

- الرِّعاية لتجويد القرآن لمكي بن طالب القيسي (ت 437هـ)

- التَّحديد في إتقان والتَّجويد لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت 444هـ)

- الموضح في التَّجويد لعبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب القرطبي (ت 461هـ)

- نهاية الإتقان في تجويد القرآن لشريح بن محمد الرعيني(539هـ).

- التَّمهيد في علم التَّجويد لابن الجزري

والقائمة تطول ويمكن الاطلاع على أسماء أشهر تلك الكتب في كتاب الدِّراسات الصَّوتيَّة عند علماء التَّجويد. والمتتبع للمباحث الصَّوتيَّة العربيَّة منذ بداية التَّحول يدرك لا محالة أنَّ علماء العربيَّة كانوا على دراية بمختلف الظَّواهر التي تعالج في المستوى الصَّوتيِّ على نحو يقترب ممَّا يقرِّره الدَّرس الصَّوتيُّ الحديث، ويظهر ذلك من خلال المباحث التي طرقوها؛ إذ يتَّصل بعضها بالجانب الماديِّ للأصوات، وبعضها الأخر بالجانب الوظيفيِّ لها، دون وضع حدود فاصلة بين هذين النَّوعين من الدِّراسة.